المحاضرة 8:

تابع لتجربة سعيد يقطين

ولقد كان د. سعيد يقطين موفقا جدا في اختيار مفهوم النص في إطلاقيته لتعويض مفهوم التراث، خصوصا وأن هذا المفهوم يسع دراسة مختلف الأوجه الأدبية التي عرفها العرب، فهي إما أنها نصوص أو أنها ليست نصوصا (لا نصوص) تبعا للمواصفات التي يحددها كل عصر على حدة والمواضعات التي تتحكم في أحكامه هاته. ويبقى حتى لهذه اللانصوص حتى امتلاك الاعتراف بنصيتها دائما. كما أن اختيار هذا المفهوم يمنح للبحث مجالات متعددة إذ يتيح إمكانية معالجة أي نص، كيفما كان شكله أو شكل العلاقة التي يتخذها، وكيفما كان العصر الذي ظهر فيه أو طبيعة الثقافة التي ينتمي إليها ،كما أن عملية دراسة النص من خلال نظرية التفاعل النصي ستتيح إمكانية الاقتراب منه في علاقاته مع نصوص أخرى إن عن جنسه الأدبي أو حتى من أجناس أدبية أخرى مختلفة عنه، وقد درس من خلال هذا المفهوم ونقيضه أي النص واللانص مسيرة جنس السيرة الشعبية وتحولاتها بين اعتبارها تارة لا نصا تبعا لمواضعات غير أدبية وتارة نصا معبرا عن قيم ثقافية وحضارية فرضتها العلاقة التي أقامها الشرق أو فرضت عليه مع الغرب، وهي مواضعات لا تمت للأدب بأي صلة. ومن أجل ترهين البحث في السيرة الشعبية لابد للباحث من تجاوز الاعتماد على الملاءمة الاجتماعية في دراستها، وهي – كما يتضح – الطريقة التي انتهجتها معظم الدراسات العربية التي أنجزت بصددها، وتبني، كما يدعو إلى ذلك د. سعيد يقطين ويقوم بفعله في دراسته هاته، طريقة جديدة، هي الطريقة التي ترتكز على الملاءمة العلمية المنفتحة على الملاءمة المعرفية بأبعادها الاجتماعية والإيديولوجية، وهو العمل الذي سنجد أن د. سعيد يقطين قد قام به بحنكة منهجية لافتة للنظر، فهو قد انطلق في دراسته لهذا الجنس الأدبي الذي ظل مهملا من الاهتمام العربي الرسمي حتى انتبه إليه الغربيون، من تحديد جملة من المفاهيم الإجرائية لتناوله، مركزا في هذا الجانب على مفهومين رئيسيين هما مفهوم الكلام ومفهوم الخبر.

بالنسبة للمفهوم الأول نرى أنه يعتمد في تعريفه له على أهم المصادر العربية القديمة التي تطرقت إلى تحديده وتبيان أهم الأجناس والأنواع المنضوية تحته، معيدا التفكير فيه بمنظور جديد لا يفرق داخله بين ما قد اعتبر فيه نصا وما قد رفض فيه على أساس اللانصية التي نسبت إليه محاولا في هذا الصدد إقامة نظرية عامة للكلام، لاسيما في تجلياته العربية أولا. وقد بدل في ذلك مجهودا علميا جديرا بالتنويه والمتابعة من لدن كل المهتمين بالمجال السردي في بعديه النظري والتطبيقي. تمثل هذا المجهود بالخصوص هنا، في الطريقة الإجرائية التي ميز بها الأجناس الأدبية المنضوية تحت مفهوم الكلام، والتي حددها في الشعر والحديث والخبر لينطلق بعد هذا إلى البحث في خصوصية كل جنس منها على حدة، وتحديد الأنواع التي يمثلها والعلاقات القائمة فيما بينها، كما يتطرق في هذا الصدد إلى تحديد الأنماط المتحكمة في كل جنس أو نوع، في تصور شمولي وعميق، ينفتح على الدراسات السردية في شتى تجلياتها بدءا من سرديات القصة ومرورا بسرديات الخطاب ووصولا إلى سرديات النص. وهو عمل علمي جبار يبين على الكفاءة العلمية والعملية التي يتميز بها الباحث د. سعيد يقطين وعلى انشغاله المضني بهذا المجال العلمي الصعب.

أما في كتابه الثاني أي كتاب ‘‘قال الراوي’’ فهو يدرس فيه خصائص البنيات الحكائية في السيرة الشعبية محددا إياها في مفهوم واحد هو ‘‘الحكائية’’ التي يعرفها بكونها ‘‘مجموع الخصائص التي تلحق أي عمل حكائي بجنس محدد هو السرد’’ وهو يشتغل بها ضمن ‘‘سرديات القصة’’ موضحا في هذا الصدد أن

أغلب السرديين قد أهملوا البحث فيها إذا انصب اهتمامهم على البحث في مفهوم الخطاب وتعدد‌ياته تاركين البحث في المادة الحكائية للسيميوطيقيين الذين ركزوا في دراساتهم لها على الدلالة أو المعنى المتضمنين فيها، ومن هنا فإن دراسته لها ستكون انطلاقا مما أغفله السرديون، وليس من مجرد التركيز على الدلالة أو المعنى أسوة بالسيميوطيقيين،أي ستكون دراسة سردية لها، انطلاقا من الكشف عن مختلف بنياتها سواء من حيث اتصالها بالخطاب أو النص أو من حيث تبيان مجمل الخصائص الفنية والجمالية التي توجد فيها. ولقد انطلق من أجل تحديد ذلك من نص السيرة الشعبية كما تجسد في الكتابة، محاولا تفكيك بنياته الكبرى والمكونات الأساسية المتحكمة فيها، كاشفا بعد ذلك عن العلاقات التي أقامتها هذه البنيات مع السياق الثقافي والتاريخي الذي أنتجها. معتمدا في علمه التحليلي المنفتح هذا، على تصور نظري محكم مستمد من علم السرديات في أجلى وأوضح تصوراته، كما صاغها مجموعة من كبار السرديين مثل جيرار جنيت وسواه، بمعنى أنه هنا حاول المزاوجة بين الانطلاق من النص المدروس الذي هو هنا السيرة الشعبية بغية الوصول إلى استكشاف أهم مكوناته للوصول، انطلاقا مما يطرحه من قضايا سواء من حيث مادته الحكائية أو المؤطرات السردية المتحكمة فيها، إلى تطوير آليات النظرية السردية العامة في حد ذاتها، وبين الانطلاق من هذه النظرية السردية في حد ذاتها ممثلة في تصورها الكلي للنص السردي المجرد ودراسة نص السيرة الشعبية أو على الأصح دراسة النص السردي كما تحقق فيها. يقول الباحث د. سعيد يقطين في هذا الصدد ما يلي :"من جهتنا نختار الاستراتيجية الأولى ولكن من منظور يضع في الاعتبار الاستراتيجية الثانية وذلك لأننا من ناحية صغنا هاتين الاستراتيجيتين بصورة تلح على تكاملهما من حيث الجوهر".

واعتمادا على تصوره المنهجي الدقيق هذا سيبدأ بتحديد خصوصية النص السردي الذي يسعى لتحليله، أي نص السيرة الشعبية عن طريق ضبط الجنس الأدبي الذي يمثله من خلال تبيان الخاصيات المتحكمة في انتمائه الجنسي هذا بغية تعيين موقعه داخل الكلام العربي كما سبق تحديده في كتابه السابق "الكلام والخبر". وأثناء بحثه الجدي هذا نراه يقوم بضبط المصطلحات التي يستعملها ضبطا علميا صارما، محددا دلالاته عند مجموعة من السرديين أو السيميوطيقيين، خالصا إلى تقديم تحديده الخاص لها وفق رؤية شمولية ذات كفاءة إجرائية عالية، يمكن التمثيل لها في هذا الصدد بالتمييز الدقيق الذي أقامه بين مفهوم السرد والحكي، حيث نجد اغلب المشتغلين بالمجال السردي خصوصا العرب منهم يغلطون بينهما. يقول "إن الحكي عام والسرد خاص، فالحكي هو الذي ينسحب عليه مصطلح "Recit" و "Narrative " وهو الذي يمكن أن نجده في الأعمال التخييلية، وفي الصورة والحركة وسواها. أما السرد فلا يمكن أن يتحقق إلا في الأعمال اللفظية" ومسألة ضبط المصطلحات هي أهم عملية في السيطرة على خصوصية المنهج المتبنى من جهة والوصول إلى مكان النص المدروس وتفكيك آليات اشتغاله من جهة أخرى. انطلاقا من هنا سنجد أن الباحث د. سعيد يقطين سيتناول وفق منهجه السردي هذا مكونات الأفعال – الوظائف في السيرة الشعبية التي اتخذها مجالا لدراسته، كما سيتناول كلا من البنيات الزمانية والبنيات الفضائية المتحكمة فيها، ليخلص في النهاية إلى إقامة تركيب مفتوح بينهما، مقدما من خلاله تصوره العام حول هذه المكونات وكيفية تجلياتها في نص السيرة الشعبية.تأسيسا على كل ما تقدم ذكره، يمكن القول وبموضوعية كبيرة، إن المشروع النقدي – الإبستمولوجي الذي شيده الباحث د. سعيد يقطين عبر كتبه السالفة الذكر مشروع يستحق الاهتمام وجدير بكل تنويه وهو مشروع يفتح آفاقا واسعة أمام الباحثين في هذا المجال ويمكنهم عبر التفاعل معه من المساهمة في خلق نظرية للسرد العربي، متفاعلة مع النظريات السردية العالمية ومحتفظة بخصوصيتها في ذات الآن.